مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــ المجلد: 11 / العـدد:02 (جويلية 2023) ص 614– 625
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

سَرد تَاريخ الهَامِش في الرّوايَة الجَزائِريّة رِوايَة "الخميس الشاحب" لجَلَال حَيْدَر أُنْموذَجًا

Narrating margins history in the Algerian novel Pale Thursday" by Jalal Haidar as a mode"

حفيظة لورسي[1]، الدكتورة: جميلة بورحلة [2]
Hafida LOURCI [1], Dr : Djamila BOURAHLA [2]
1 جامعة محمد الصديق بن يحيى–جيجل(الجزائر)، hafida.lourci@univ-jijel.dz
2 جامعة محمد الصديق بن يحيى–جيجل (الجزائر)، djamila.bourahla@univ-jijel.dz
مخبر الانتماء: مخبر اللغة وتحليل الخطاب

تاريخ الاستلام: 2022/11/19	تاريخ القبول: 2023/05/07	تاريخ النشر: 2023/07/13

الملخص: يقف التَّاريخ في توجّهه العلمي على منجزات الشخصيات الهامة، والأحداث البارزة التي ساهمت في تحريك سيرورته، وتوطينها في الكتابات التَّاريخية، لتشكِّل مضمارًا أساسيًا لبناء تاريخ رسمي، يتأسَّس على مركزيَّة معرفيَّة مُؤَدْلَجَة.

وباعتبار الرِّواية العمل النقدي الذي يشكّك في جميع الخطابات بما فيها التَّاريخ الرسمي، فقد سعت إلى نقد مساعيه وتقويضها، بتوجيه مدارات اعتناءاتها نحو التأصيل للخطاب الهامشي، لذلك تهدف هذه الدراسة إلى كشف مهمّة الرَّواية الجزائريَّة في كتابةِ تاريخٍ خاصٍ بحياة المهمَّشين، والنبش عن التَّاريخ المنسيّ في الذّاكرة التَّاريخية، وتعرية زيف حقائق التَّاريخ الرَّسمي، من خلال الأنموذج الرّوائي الموسوم بـ "الخميس الشاحب" لمؤلفه "جَلَال حَيْدَر."

الكلمات المفتاحية: التّاريخ الرّسمي، الهامش، الرِّواية الجزائريَّة، الخميس الشاحب، جَلَال حَيْدَر.

Abstract: History in its scientific orientation is mostly concerned with the accomplishments of the important personalities and notable events that made it and inserts them into historical writings so that they constitute a main path of founding an official History based on ideological cognitive centrality

Novel as the critical work that interrogates all discourses, including the official History, criticizes and undermines its attempts by focusing on highlighting the margins discourse.

This study aims to reveal the task of the Algerian novel in writing a history of the life of themarginalized and unearthing the forgotten history as well as exposing the falsity of the official history through the narrative model " Pale Thursday" by Jalal Haider.

Key words: Official history, margins, Algerian novel, Pale Thursday, Jalal Haider.

المؤلف المرسل:حفيظة لورسي، **الإيميل**: hafida.lourci@univ-jijel.dz

1.مقدمة:

اهتدى التَّاريخ عبر مساراته الطويلة والمتجدِّدَة، مسلك الأحداث الماضية الكبرى، واحتفى بشخصيات أحدثت أثرا بالغا في سيرورة حياة البشر. وانكفأ على التغيُّرات التي خلقت شرخًا عظيما في قلب موازين القوى بين مختلف الأمم، مهملا في الغالب التفاصيل الصغيرة التي ساهمت في تشكّله، فامتازت اهتماماته بالمركزيَّة ذات الجانب الأحادي القائم على الفوقيَّة المتعاليَّة.

وإذا كان هذا التَّاريخ الرَّسميّ والمؤسَّساتي الذي احتفى به المؤرّخون، قد انصبَّ على الطبقة السلطوية متوافقا مع مطامح المُنتصر الذي خوَّل لنفسه حقّ كتابة هذا التّاريخ، وتلميع صورته وتشويه صورة المُنهزِم، فهناك بعض الخطابات الفكرية والأدبية، تفارق هذا التَّاريخ المتزَّمت في تداعياته وأهدافه، وتهتم بالمقموع والمهمَّش. ومن بين هذه الخطابات، نجد الرواية التي أضحت لسان حال جميع الأصوات التي كُمِّمَت أفواهها، وسُحِقَ وجودها ومواقفها تحت مظالم سلطويَّة، لِتكتبَ تاريخًا جديدًا لم يُدَوَّن من قبل، أو مُزكّى أو مؤدلجا من طرف جهات سياسية، وإنما يتماهى مع الذات الإنسانية المتوارية خلف هذا الوجود، الذي تفنَّنَ في تغريبها وقهرها وإقصائها، ما يوحي بوجود متغيِّرات في فهم التَّاريخ وتبسيط مجالاته، بإحلال تفاصيل حياة الإنسان الهامشيّ، وهو مسعى الرِّواية الجزائريَّة في نظرتها الشموليّة الراغبة في لمس جميع أطياف المجتمع وطبقاته.

إنَّ إعراض العديد من النصوص الرّوائية الجزائرية عن التأسيس للتّاريخ الرَّسمي الذي يُعَزِّزُ من موقع المركز، وسعيّها إلى تعرية مساوئه، وتوجّهها نحو الخطاب الهامشيّ، يقود إلى طرح تساؤلات، ستكون المنطلق في تحديد عناصر هذه الدّراسة ومضمونها، والمتمثلة في:

– كيف دوّنت الرّواية الجزائرية حياة الهامش، وكتبت تاريخه؟ وهل نجحت في مركزة الهامش وتعرية التاريخ الرسمي؟

ولمناقشة هذه التساؤلات والإجابة عنها، تم اتباع المنهج التحليلي، قصد تبيان الكيفية التي دوَّنت بها الرواية الجزائرية حياة الهامش والتأريخ له، وكشف مقدرتها على جعل الهامش مركزيا، وتوضيحها لمزالق التاريخ الرَّسمي. وذلك من خلال العناصر التالية:

1. خطاب الهامش ومناهضة التَّاريخ في الرِّواية الجزائريّة.
2. سرد تاريخ الهامش في رواية "الخميس الشاحب" لجَلَال حَيْدَر.

3. نقد التّاريخ الثوري.

2.خطاب الهامش ومناهضة التّاريخ في الرّواية الجزائريّة:

قبل الإشارة إلى علاقة خطاب الهامش بالتاريخ في المشهد الرّوائي الجزائري، توجّب أولا، وضع مفهوم مُيسَّر للتَّاريخ، رغم صعوبة حصره في نطاق مفاهيمي محدَّد، لارتباطه بمختلف مجالات المعرفة الإنسانيّة، وكذا، تفاوت وتباين وجهات نظر كل المشتغلين عليه؛ من باحثين ودارسين ومؤرخين، بتقديمهم مفاهيم خاصة، منبثقة عن فهمهم الشّخصي والإيديولوجي، وهذا يتسبّب في حدوث ارتجاج وزئبقية في استكناه جوهره، ما يُصعِّب استحضار جميع المفاهيم والمطارح التي نظَّرت لهذا التّاريخ وبحثت في مفهومه، كون هذا المقام لا يتَّسع لتحقيق ذلك؛ لذا تكتفي هذه الدِّراسة بتقديم المفهوم الذي قعَّد له "ابن خلدون" في استحضاره للتَّاريخ، باعتباره من المؤسسين له؛ إذ ذهب إلى تعريفه، في مؤلفه "المقدمة" بقوله: "اعْلَمْ أَنَّ فَنَّ التاريخِ فَنٌّ عَزيزُ المَذْهَبِ، جَمُّ الفَوائِد، شَريفُ الغايَةِ، إِذْ يوقِفُنَا عَلَى أَحْوالِ الماضينَ من الأُمَمِ في أَخْلاَقِهِم، وَالأَنْبِياءِ في سِيرِهِمْ، وَالملوك في دُوَلِهِم وَسِياسَياتهم؛ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ الاقْتِداءِ في ذَلِكَ لمن يَرُومُهُ في أَحْوالِ الدِّينِ والدُّنْيا، فَهُوَ مُحتاجٌ إِلَى مآخِذَ مُتَعَدَّدَةٍ ومَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ، وَحُسْنِ نَظَر وَتَثَبُّتٍ يفْضِيانِ بِصاحِبِهما إلى الحَقِّ وَيُنَكّبانِ بِهِ عَنِ المَزَلَّاتِ وَالمَغَالِطِ." (ابن خلدون، دت، صفحة 41).

وبالنظرِ إلى هذا المفهوم الذّي قدَّمه "ابن خلدون"، يُمكن التماس نوع من النفعيّة التي تكتنف التّاريخ، باعتباره كثير المنافع والغايات، ويُمَكِّنُ الإنسان الحاضر والمستقبلي من معرفة طبيعة الحياة التي كان يحياها الإنسان السابق، وهذا من شأنه أن يُحدِثَ أثرًا مهمًا في حياته، بأخذ العبرة، والاقتداء بأمجاد الأمم وشخصياتها. كما يهتم هذا التَّاريخ بمنجزات الملوك، والسلاطين، والأنبياء، والقادة العسكرين والفاتحين، الذّائعين الصيْتَ في العديد من السجِلّات والوثائق التَّاريخية، المحفورة أسماؤهم في الذَّاكرة التاريخية، نظير الاهتمامات البالغة التي أحيطت بهم، وتواترها عبر الأجيال، فجاء تّاريخا رسميا خاصا بفئّة معيّنة من الناس، تمارس سّلطتها على المؤرخّين وكل المشتغلين على معارف التّاريخ ومضاميره المتنوّعة، إرضاء لنّظام سّلطويّ سياسي، يتحكَّم في طريقة توثيق المؤرّخين، وتوجيهها وفق ما تمليه مصالحهم الشخصيّة والإيديولوجيّة. باعتبار أن السلطة، "هي التي تقوم على سنِّ القوانين وحفظها وتطبيقها ومعاقبة من يخالفها. وهي التي تعمل على تغييرها وتطويرها، كلّما داعت الحاجة." (لابيار، 1974، صفحة 49) فكانت نتيجة هذا التحكّم في كتابة التاريخ هو انبعاث الخطاب المركزيّ، الذي استحوذ على مجالاتٍ متعدِّدةٍ، حيث تشعَّبت مداراته سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا واقتصاديًا وحتى أدبيًا، ويدحض في

المقابل، خطاب الهامش الذي يُنْظَرُ إليه بعين النقيصة والازدراء، بالرغم من ورود هذا الخطاب أيضا في ميادين حياتيّة عديدة؛ أي أنه يسير موازيًا معه، ويناقضه ويتعارض معه في العديد من المقولات والأهداف.

ولهذا، كانت النصوص الرِّوائية الجزائريّة، مثل رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي، ورواية "كولونيل الزبربر" للحبيب السايح، ورواية "يوم رائع للموت" لسمير قسيمي وغيرها من النصوص على اتصال مباشر مع خطاب الهامش من خلال تعريتها لما هو مسكوت عنه، ومقصي من دائرة التسّاؤلات المطروحة على مستوى السياسي والثقافي. والتأريخ لحياة المهمّشين والمقموعين، لأنه التاريخ الحقيقي والأجدر بالتدوين، كونه يلامس جميع فئات وطبقات المجتمع، ويعكس بصدق الواقع الجزائري والعربي بكل تمفصلاته ومحاسنه ومساوئه، و"يعلن عن ولادة تاريخ بديل وجديد، يتجاوز إطار المركزيات التاريخية التقليدية، ويصوّر معاناة المهزومين والمسحوقين والمقهورين من خلال السرد الروائي." (ثامر، 2018، صفحة 05) فهذه الرؤية الجديدة للرواية الجزائرية، انبثقت نتيجة الوعي الفكري للرّوائي الجزائري، الذي تشكّل نظير اِطّلاعه المتواصل والحثيث في الكتابات التاريخية، كانت بعيدة عن الواقع الحقيقي الذي يعيشه الإنسان البسيط واهتمامها بالشخصيات البارزة والأحداث الهامة، فرأى من الضروي أن يُغيِّب هذه الهوة السحيقة بين التَّاريخ والإنسان المهمّش، كونه ينتمي اجتماعيًا وثقافيًا وروحيًا إلى هذا الإنسان ويمثل هويّته، ليكون صريحًا مع نفسه، ومتصالحًا مع ذاته، ومتحملاً للمسؤولية الملقاة على عاتقه، "فدور المثقف مهم وضروري في ظل سيطرة السلطة التسلطية/السلطوية على الفضاء السياسي والاجتماعي والثقافي." (إدوارد، 2011، صفحة 37) فشاءت للنّصوص الرِّوائية الجزائريّة المعاصرة أن تكون الحاضنة للفكر الهامشي؛ إذ جعلت من متونها السردية حيوات جديدة وبأوجه متعدِّدة، تنبض بخطابات وأصوات مُندسَّة تحت ركام النسيان المُتعَمَدِ في الذَّاكرة الوطنية، من أمثال روايات، أحلام مستغانمي، وبشير مفتي، وسمير قسيمي، وأسيا جبار، وياسمينة صالح، ومحمد ساري، وغيرهم، فجاءت صدى لآهات المُهمَّشين والمقموعين، أراد أصحابها أن تكون توثيقًا آخر، من نتاج إبداعي متماه مع الإنسانيّة الحقَّة، تعطي لكل فردٍ كينونته التي من المفترض أن يمتلكها تلقائيا من غير مطلب أو احتجاج. وبهذا، فالروائي الجزائري المعاصر في تعامله مع التّاريخ الهامشيّ، "قد كان أكثر أمانة وشجاعة وصدقا من التّاريخ الرسميّ، لأنه ببساطة، انحاز إلى تدوين تاريخ الإنسان المهمّش والمسحوق في أحلامه، وصبواته، ومعاناته، وتوقه إلى الحرية والعدالة والجمال، وتجنب الامتثال إلى التاريخ الرسمي المزوَّر، الذّي يركّز على أفعال السلاطين والملوك والأمراء." (ثامر، 2018، صفحة 07) فالنبش في تاريخ الهامش في الرِّواية الجزائرية، هو في الأساس، بحث عن التّاريخ المجهول والمنسي في أقبية التّاريخ، واستكشافه، ليكون شاهدا على زيف التَّاريخ الرسميّ، ويصبح نقدا مضادا يتغدى على هفواته وسقطاته المؤدلجة.

ويمكن التمثيل لمثل هذا التوجّه الرّوائي من الناحية الإجرائية، بالمنجز الروائي الموسوم " الخميس الشاحب" لمؤلفه جَلَال حَيْدَر، الذي بدأ يختطُّ مشروعه الروائي بخطة ثابتة نحو التأصيل للرواية الجزائرية، بغوصه في عمق المجتمع الجزائري، متخذا من المحليّة والهامش، سبيل لتكوين خصوصية كتاباته الروائية.

3.سرد تاريخ الهامش في رواية "الخميس الشاحب" لجَلَال حَيْدَر:

تنفتح رواية "الخميس الشاحب" لجَلَال حَيْدَر على مضارب حياتية، خاصة بالمجتمع الأوراسي في مرحلة الثورة الجزائرية، اختارت شخوصها من التَّاريخ المُغَيَّبِ في الذّاكرة الوطنية، فجاءت مزيجًا بين شخصيات فرنسية (ضباط، جنود، الأقدام السوداء..)، وشخصيات جزائرية مختلفة الانتماءات (عرب وأمازيغ..) ومتباينة في الفئة العمرية(أطفال، كهول، شيوخ، نساء) ومختلفة إيديولوجيا (مجاهدين، وحَرْكِيينَ..) كاشفة عن طبيعة العلاقة التي تربط بين هذه الأطراف، فجاءت توافقية حينًا وتصادميَّة أحايين كثيرة، تفصح عن تناقض وزئبقية العلاقات الإنسانية في هذه الفترة، مُشَخِصَة أحداثها في فضاءات وأمكنة نائية عن أعين الكثيرين، فكانت أودية وجبال وسفوح وأكواخ ومحتشدات منطقة الأوراس (بني ملول، خنشلة...) مسرحًا لسردية هذه الرِّواية.

3–1الطفل بين الذاكرة الفردية والجماعية:

اِستأثر الطفل مكانة خاصة في الحيِّز السردي لرواية "الخميس الشاحب"، كاشفا فيها عن عوالم الطفولة المتآكلة والمتهالكة، وقت اصطدامها بواقع مأساوي، فرضه الوجود الفرنسي، فكان الفاعل الأساسي في تحريك العمليّة السرديّة، باتخاذه دور السّارد المشارك في السرد، وتأديته لدور الراوي العليم، يمارس سلطته في سرد الأحداث وتقديم الشخصيات والحوارات، ما جعل الطفل يرتقي سرديا نحو المركزيَّة، بعد أن غُيِّبَ وأُبْعِدَ من مدار اهتمامات بعض المرويات التَّاريخيّة.

وتتحقَّق هذه المركزيَّة السرديّة، من خلال عودة الطفل "المكي" بالسرد إلى ذاكرته الفردية، عاكسا وضعه المأساوي، وانتكاساته المتواصلة، واسترساله في سرد وقائع، استقاها من معاناته في ظل ظروف الثورة القاهرة، وتجاوزات المُسْتَعْمِر الذي تعدَّت ممارسته اللّاإنسانيّة، حدود الفرد الضعيف المغلوب على أمره، "صفق روجيه الباب خلفه، ولا شك في أن سيلا من الشتائم اندلق دون أن يسمعه بناصر الذي ربط رأس الحبل في حذوة الحصان وراح يسرع كي يخفي خجله من الجنود والباعة والشيوخ الذين توقفوا لمشاهدة هذا العرض. سقطت أرضا على بطني، أحيانا أنقلب على ظهري، وأعود إلى وضعي، تمزقني الحص، يداي تتقطعان، صراخي يصل أعلى برقة، لم يتقدم

أحد لإيقافه، عاد بي إلى البيت، ولم يتبق مني شيء، فقدت وعي حينها، وعندما استفقت وجدت الطبيب يعبث بجسدي العاري، المليء بالجراح. لا أدري كم لبثت في غيبوبتي، لا أستطيع تحريك أطرافي." (حيدر، 2021، صفحة 62).

وينتهج المُسْتَعْمِرُ ممارسات إقصائية أخرى، تفوق حدّتها التعذيب الجسدي، باتخاذه القتل المعنوي والنفسي وسيلة لقهر الطفل "المكي" الذي يمثل مستقبل هذا الوطن، وخلق جيل مهزوز الإرادة، منقوص الثقة، مُهشّم الهوية، يخضع لسيطرة سلطوية، استعمارية، تسير وفق نظرة إيديولوجية، إقصائية للآخر، تشكّك في تحضّر هذا الفرد العربي، "أنت وحش عربي، ولا تستحق أن تدرس معنا." (حيدر، 2021، صفحة 63) كما تمثل –من جهة أخرى– رؤية الروائي ورغبته في تفكيكه وتزيفه لأسطورة الاستعمار الفرنسي حامل الحضارة والمدنية إلى البلدان المُسْتَعْمَرَة والمتخلّفة.

فالقهر العمدي الملازم للطفل الجزائري تحت هذا الوضع الاستثنائي، دفع به إلى طرح تساؤلات مربكة يصعب إيجاد إجابات شافية عنها. جرَّته إلى قلق وجودي، باحثا عن مصير كائن بريء، رمت به الظروف إلى المتاهة والعبثية، واللاجدوى من فهم هذا الواقع الذي يعيشه، مدركًا قضاء حياته في البحث عن الحلول والمنافذ المُمكِنة. واضعًا في حسبانه، أن مستقبله سيكون مسرحا لمحاولات يائسة للخروج من هذا المأزق اللامتناهي. ويمكن التماس هذا الارتباك النفسي، عبر وقوع الطفل "المكي" في قلق السؤال والحيرة، "ما هذا الذي يبعثنا صغارا بلا ذنوب، وسط هاته الوحوش الهائجة، ثم يطلب منا إرضاءه طيلة حياتنا، ألا يعلم أننا سنقضي حياتنا كلها نحاول التحرر، أو فهم شيء لا يفهم؟" (حيدر، 2021، صفحة 42).

فجاء هذا التوليف السردي، ليُبيّن صوت الطفولة المحجوب في المآسي الإنسانية، وكيف تَدْفُنُ الحروب والأزمات آمالها ومطامحها، "كلهم دون استثناء يدوسون فوق الطفولة، ويشعرون الأطفال بأنهم أسرى حروب. (حيدر، 2021، صفحة 42).

فالسارد في هذا المتن الروائي (الطفل)، قد اِنزوى إلى محاكاة الزمن الماضي، واستحضار ذاكرته الفردية التي تُعَبِر عن خصوصيته وهويته، بِمَعيَّة استجلابه للذّاكرة الجماعيّة المُشترَكة التي تعين السارد على التقاط ما هو محفوظ ومشترك بين جميع الأشخاص الفاعلين في هذا النص الروائي، إذ "لا يختلف البعد الذاكراتي الفردي عن البعد الجمعي، كونه تحصيلا عنه واستتباعا له." (هناوي، 2019، صفحة 79) وهذا ما كان السارد ينقله بين الفينة والأخرى، بانتقائه مقتطفات سردية، تنقل بصدق زوايا غير مرئية في دهاليز التاريخ، مبينا "دور الشاهد بإيهامية

حلمية، يتلاقى عبرها التاريخ الغابر ذهنيا بالواقع المعيش فعليا" (هناوي، 2019، صفحة 79)، فجاء النص مكاشفة حقيقيّة لحياة سكان قبائل منطقة الأوراس، ومحاكاة لمآسيهم المتواصلة، فرضتها قوى قمعية، تمارس وحشيتها بإتقان متفرد،" كلما نحمل عصينا ونحدق إليهم يتوزعون حول البيت، يركلون الأبواب بأحذيتهم الخشنة، يحشدون الناس، يلقون الدقيق من المرتفع، فيبدو شلالا أبيضا" (حيدر، 2021، صفحة 100)

ويقتنص الرّوائي عبر تموّجات سرده الرّوائي، شخصيات مُتَخَيَّلَة، لتكون شاهدة على رغبة الرِّوائي في تسليطه الضوء على أُناس كانوا ضحايا لوطن مُضْطَهَد، أعرضت التَّدوينات التَّاريخيّة عن توثيقهم، ليصبح هذا التمثيل الجزئي صورة كليّة وصادقة عن عذابات الشعب الجزائري مرحلة الاستعمار الفرنسي،"وجدت عمي سعيدة قرب منزله، يطوي خيوط الديس اليابسة، وقد اقترب شكل القفة على الإنتهاء، يرتدي جبة بيضاء واسعة، بلا أكمام، عمامة بيضاء ضخمة، وجهه الأسمر أحرقته شمس ولجة الملتهبة، هنا الرجال كلهم أشعلتهم الشمس، لا يوجد من يبدو في مظهر الفرنسين، مرتبون وسحنتهم بيضاء أو شقراء نضرة، هنا قطبت الحياة وجهها، ولم تترك لهم متسعا للهراء." (حيدر، 2021، صفحة 53)

وإن كان الرجل قد أخذ نصيبه من حكائية هذا النص، فالمرأة تحضر مكونا سرديا أساسيا، لكشف حياة النساء الأوراسيات المغمورة بين التلال والجبال والأودية، ونقل يومياتهن، وتوثيقها روائيا، "نجد بعض النساء يغسلن ثيابهن، أو أكوام الصوف، تجلس بجانبهن عجائز قويات، مثل حرس الثكنة، يحركن عكازاتهن، ربما كإشارة بأن المكان ممنوع عن البالغين" (حيدر، 2021، صفحة 17)

كما اختار الروائي شخصية "حبثة" للترّميز عن شخصية تراثيّة أوراسيّة، لها مكانتها في المِخيال الشعبي الأوراسي، معبرة –في الآن نفسه– عن دلالة كُليّة، ممثلة في الوطن الجريح الجزائر الذي يكابد ويلات الاستعمار، مختزلة أيضا، دلالة خاصة، فتشير إلى المرأة الجزائرية الأوراسية، ونقل معاناتها وحرمانها من أبسط حقوقها، كحقّها في التعليم الذي كان مقتصرًا على أبناء الفرنسين، مسفرًا عن قناعات المرأة في تحرُّر وطنها من هذا الغازي المقيت. يقول السارد: "كنت بحاجة إلى عظمة كهذه لأشعر ببعض العزاء. كان الكلب بداخلي يهدأ قليلا، ثم يزداد فضولي فجأة. فيرتفع نباحه.

–لم تحزنك حادثة طردك من المدرسة؟

–لا لم أحزن، في الآخير هم فرنسيون.

–وماذا يعني أنهم فرنسيون؟

–أبي أخبرني أن هذه الأرض ملكنا وليست لهم.

–وماذا يعني هذا؟ أنت بحاجة مثلنا إلى الدراسة، ولا يحق لأحد أن يطردك.

–لا أعرف لكن مادامت الأرض ملكنا فهم ضيوف عندنا وسيأتي اليوم ويغادرونها لهذا لايجب أن نقسوا على أنفسنا بالحزن والعتاب. (حيدر، 2021، صفحة 17)

وما يُميّز هذا التذكُّر السردي، خلوه من شخصيات تاريخيّة معهودة في الذّاكرة الشعبيَّة، أمثال" مُصْطَفَى بَن بُولْعِيد" و" أَحْمَد زَبَانَة" و" زِيغُود يُوسَف" وغيرهم، احتفت بهم الدراسات التَّاريخية، وخلَّدت ذكراهم المتاحف والمراكز التاريخية والثقافية، وإنما ذهب صوبَ التأريخ لشخصيات غير مألوفة، هي من صنع مخيال الروائي، ولكنها تحاكي وتُمثّل شخصيات واقعية ساهمت في تحقيق الحرية المنشودة والاستقلال، ولم تكن ضمن مباحث التّاريخ الثوري. وفي هذا الوضع "تصبح المسرودات في عين الرائي/ الشاهد مجرد متخيلات عاملية عن نماذج بشرية واقعية، والتذكر هو بوابتها نحو استرجاع الزمن الماضي." (هناوي، 2019، صفحة 78) فاهتمام الروائي بالشخصيات المهمشة، راجع لرغبته الفنيّة في إحياء الشخصيات التاريخية والواقعية، بافتراض شخصيات متخيلة، لتكون منطلقه في التأريخ للخطاب الهامشي.

3–2 توثيق الثقافة الشعبية للمجتمع الأوراسي:

إن أراد الرّوائي تحقيق هوية كتابية للنص الرّوائي الجزائري، فحريّ به االغوص في عمق هذا المجتمع الذي يكتب له، ويؤسّس منظوره الخاص، بناء على ثقافته النابعة من السلوكيات والعادات والتقاليد الممارسة من طرف الإنسان البسيط، يمكن أن تُضَافَ إلى الموروث الثّقافي والتّاريخي. وهذا ما اشتغل عليه الروائي "جَلال حَيْدَر" في هذه الرّواية بتقديمه نتاجًا ثقافيًا، استوحاه من عمق المجتمع الأوراسي، وتخصيص اهتماماته بقبائل "بَنِي مَلُولْ" الواقعة بمنطقة "الأَوْرَاس"، وابتعاده عن رصد البطولات والاستشهادات التي دارت في جبالها، وكانت قبلة للمؤرّخين والتوثيقات التَّاريخيّة. فالرّوائي كان مدركًا لضرورة ارتباط النص الرّوائي بالحياة الإنسانية، وملازمته طرائق عيش الشعوب البسيطة المنغلقة في مناطق منعزلة، ونقل نمط عيشهم، وعاداتهم وتقاليدهم بتفاصيلها الدقيقة. ويتجلى هذا في قول السارد: "عندما وصلنا وجدنا النساء في خيمة طويلة، بعضهن حول العرائس، وأخريات حول القدور التي تنتصب على الأثافي، أما الرجال فيقومون بدبح الشياه، أو سلخها، في الوادي تحت مغارة حبثة(...) أوقدوا النار

وتحلقوا حولها العشية، كلهم بثياب بيضاء، وبندقياتهم في أيديهم على بعد من الخيام، وعندما حط الظلام تحسبهم يحترقون أيضا، يشتعلون دون أن يندثرو، هؤلاء هم البربر. أما النساء فيجلسن كلهم بجانب الخيام، لا تصلهن الضياء الذي ينشرها اللهب، ظهرت أربع نساء يغنين ويرقصن مع شخصين يعزفان بأصابعهم على القصبة، يخفين وجوهن بمناديل بيضاء وشخصان في أثرهم يضربان على الدف، ومن حين لآخر يقف أربعة رجال يسيرون بخطا بطيئة، يجلسون على ركبهم ويطلقون البارود نحو مغارة "حبثة". (حيدر، 2021، الصفحات 53–54)

فالرّوائي عمل على نقل التفاصيل الصغيرة للحياة وبطبيعتها الصافية، ونفذ إلى مستوى طبائع البشر وأخلاقهم، لتصبح هذه الرّواية معاينة بسيكولوجية خاصة بالمجتمع الأوراسي تفنَّن السّارد في تقديم حقيقة هذا المجتمع،"لا يختلطون كثيرا بالأقوام الأخرى، لا يزوجون نساءهم لغيرهم...رجال شجعان، عنيفون، غيورون، على نسائهم، لا يمكن أن تعرف ما يخفونه خلف نظراتهم، ردّات فعلهم تجاه أي إهانة هو القتل، لاسبيل للمفاوضة معهم" (حيدر، 2021، صفحة 54)

كما لم يُفوِت هذا النص، فرصة تعريف المتلقي بالطرائق التي يهتدي بها المجتمع الأوراسي لحل مشاكله الاجتماعية، في فترة الخمسينيات من القرن الماضي، إذ يفصح عن طريقة تفكيره، وكيفية تعامله مع المواقف التي تترصد حياته اليوميّة، "لايوجد ما يعكر صفوهم، نمط حياة رتيب، متشابه، لا يتعالى أحدهم عن الآخر، مشكلاتهم يتم حلها بسرية في "تاجماعت"، مهما كانت درجة المشكلة، لا يحتكمون إلى الفرنسيين، إلا حوادث القتل، يتم محاكمة القاتل في محكمة مدنية، أن اشتكى أهل الضحية، وفي الغالب يصلون إلى حل عرفي، ويطلق سراح الجاني، يؤخد مكبلا إلى عائلة الضحية، ويجلسونه على ركبتيه ورأسه مغطا بقلنسوة برنوسه، يضعون خنجرا في يد أقرب الناس إلى الضحية، والده أو أحد اخوته أو أبنائه، يقتله أو ينزع عن رأسه القلنسوة ويتركه حرا، في كلتا الحالين يعقد صلحا بين الطرفين، وينتهي النزاع." (حيدر، 2021، صفحة 53)

كما أضاف حضور اللهجة الأمازيغية هويّة للنص، شاء الرّوائي من خلالها تلوينه بهالة تراثية، ومزاحمتها للغة العربيّة الفصيحة والاندماج معها، فقدمت نصا بانورامیا، معبرا عن التنوّع الثقافي والحضاري للمجتمع الجزائري، يمكن التمثيل لحضور هذه اللهجة في هذا المنجز الروائي، بقول إحدى الشخصيات: "مميم ذبوسكين، بد فلام إيغ فلاس أخامت آلد أديغر فوغيلنس" (حيدر، 2021، صفحة 54)

ويرفق هذا المقطع، ترجمة باللغة العربية "(إبنك فحل، انهضي من حزنك، وأقيمي عليه بيتك، حتى يكبر)."

لتعزيز قابلية النص لدى جميع صنوف القراء. (حيدر، 2021، صفحة 45)

فالمقموعون والمهمشون ينجزون في حياتهم المُعلنَة والمُستَتِرة، أرشيفًا غنيًا جميلاً، سريع التطاير، أرشيفا شفهيا، يرحل مع الراحلين في حكايتهم الراحلة، (الدراج، 2004، صفحة 123) فتأتي الرواية لتجمع شتات هذا الأرشيف، فتؤرخه وتوثقه، مثلما وثَّقت رواية "الخميس الشاحب" حياة الأوراسيين، عبر تكثيف حضور الثقافة الشعبية، وجعلها بحثا انثربولوجيا، أركيولوجيا، يتغلغل في عمق المجتمع الأوراسي ويؤصل لثقافته المُهَمَّشة، ويؤرِّخ لها، ويؤسِّس لمركزيتها الثقافية.

4.نقد التّاريخ الثوري:

إن التمعّن في الفضاء التعبيري لهذا النص، واستقراء الأنساق والرؤى التي تحكم أبعاده الدلالية، يؤدي بقرائه إلى تغيير بعضا من قناعته ومكتسباته العالقة في ذهنه حيال تاريخ بلاده الثوري، بعدما كان يُنظَر إليها بقدسية واحترام تام لهذه الفترة، نتيجة لتلك الصورة المثالية والإيديولوجية التي كرّستها الكتابات التَّاريخيَّة الرَّسمية، فترسَّبت في اللاوعي الجمعي نزاهة هذا التَّاريخ وخلوه من النقائص والمزالق.

فالنص قد أنتج تاريخًا آخر مضادًا، يقوِّض التَّاريخ الرَّسمي في تداعياته المُؤَدْلجَة والمُلَفَّقَة، وتعريته لحقائق مزيَّفة قِيلت عن الثّورة، وتوطَّنت عند العام والخاص، وذلك، عبر كشف الوجه الآخر للمواطن الجزائري ومواقفه تجاه وطنه، فالكل يدَّعي الموالاة والمساندة التّامة للثورة، بتسخير جميع الإمكانات البشرية والمادية، لإنجاحها وتحقيق أهدافها، فجاء النص كشفا للخيانات المتوالية وللإيديولوجيات المتضاربة، فزَّقت الوحدة الوطنية، وعصفت بشملها. تمَّ التمثيل لها من خلال شخصية "بناصر" جسدت دور أخ الطفل " المكي"، أشهر موالاته لهذا المُسْتَعْمِر، مقابل خيانته للوطن، ليشكّل الجزء المخفي والمعتَّم من التاريخ الثوري، فالخائن في عُرْفِ الجميع يمثل وصمة عار على الثورة والوطن، اجتهدت الدراسات التّاريخية على تغييبه، كونه يسيء لمقاصدها ومطامحها. وتتضح صورة الخائن أو "الحَرْكي" في قول السارد: "ثم إنني سمعت أخبارا عن بناصر، بأنه انضم إلى الجيش الفرنسي، لا أعرف كيف فعل ذلك، وكيف تم اختياره". (حيدر، 2021، صفحة 96)

كما عمد الرّوائي إلى كشف الصراعات الداخلية بين قادة الثورة، وتصاعد المشاحنات لدرجة وصولها حدّ التصفيّة الجسديّة من خلال قول السارد: "لجأنا إلى إخواننا في الجبل، وجدنا خلافات كثيرة بين الجيش والجبهة، لا أخفي أننا تقاتلنا بسببها، كنا مرغمين على ذلك، الحرب ليس فيها سوى الموت، إن لم تقتل سيقتلونك، كثرت

الخلافات، حتى أصبح لنا أربعة أو خمسة أعداء بدل عدو واحد، ولكن لم نكف عن ضرب فرنسا." (حيدر، 2021، صفحة 162) فكان قاصدا من هذا فضح الوجه الحقيقي للتاريخ الثوري ونزع صورته المُلَمَّعَة، التي اجتهدت بعض المدونات التاريخية في إبرازها وفقًا لدواعي سياسية وسلطوية، وهذا ما جعل الروائي يذهب "إلى توكيد أن لا سلطة يمكن أن تستمر في غيها وبطشها." (هناوي، 2019، صفحة 72)

فالرّواية بهذا التسريد النقديّ، قد "نهلت من التاريخ نتائجه، وحققت مسلماته، وأكملت ما سكت عنه التاريخ وصححت ما زيّفه،" (الشمالي، 2002، صفحة 108) ونجحت في اختراق الحقائق التّاريخية واليقينيات المُلَفَقَة، واستبطان المجاهيل والتصريح بها عبر مسالك هذا النص، في مثل قول السارد: "لا تخف، التاريخ سيختارهم بعناية، حتى وإن لُطِخَت أسماؤهم، سيمسح عنها الوحل،" (حيدر، 2021، صفحة 174) وهذا هو جوهر العمل الفنيّ ومهمة الرّوائي الحقيقية في تجاوزه للمكرَّس في المنظومة الثقافية ونقده، وخلخلة مركزيته.

5. خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة يتبين أن هذه الرّواية قد شكّلت قراءة نقدية حداثية، من خلال الالتفات إلى كتابة حياة المهمشين التي أهملها التّاريخ الرسميّ، واهتم بتخليد مآثر الشخصيات التاريخية المعروفة، والأحداث المهمّة والمتداولة التي تصاحبها، مُؤطرة ومؤسّسة لمفهوم أن التاريخ الحقيقي، هو من يلج إلى بواطن الأزمات التي تعرقل سير الوجود الإنساني للأشخاص البسطاء والمقهورين؛ فاستدارت نحو التأريخ للمجتمع الأرواسي والتقاط الزوايا المهمّشة فيه، فكانت سرديّة توثيقيّة لواقع جزائري حقيقي، مؤكدة أيضا مقدرة الرّواية الجزائرية على ملامسة الذات وكشف سلوكاتها وثقافتها في أزمنة تاريخية ماضية واستدعائها في الزمن الحاضر.

كما استطاع هذا النص الروائي قلب الأدوار والمراكز لصالح الطرف الذي يَوَدُّ الرّوائي أن يتسيَّد سلطانه، فهمّش المركز ومَرْكَزِ الهامشي بعد عناء طويل من الإقصاء، والاختفاء خلف أردية النسيان المُؤدلَج الذي مارسه التاريخ النخبوي، واتباعه لسياسة الإقصاء، ودحض الفكر الشمولي، الذي يبسط اهتماماته على جميع الأطراف، فحقّق العدالة التي فُقِدَت في براثين التمييز القائم بين المركز والهامش، وثنائياته المتناقضة .

كما قدّمت رواية "الخميس الشاحب"، رؤية جديدة عن التاريخ النضالي الجزائري من خلال نقدها للثورة التحريرية، وكشف بعض مزالقها التي غابت عن وعي الفرد الجزائري بعد أن كان ينظر إليها نظرة تقديسية.

6. قائمة المراجع:

1.جان وليام لابيار. (1974). *السلطة السياسية* منشورات عويدات. بيروت، لبنان.

2.جلال حيدر. (2021). *الخميس الشاحب*.دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة.الجزائر.

3.سعيد إدوارد. (2011). *خيانة المثقفين، النصوص الأخيرة*. دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.دمشق ،سوريا.

4.عبد الرحمن ابن خلدون. (دت). *المقدمة*. دار الهدى.عين مليلة، الجزائر.

5.فاضل ثامر. (2018). *التأريخي والسردي في الرواية العربية* دار الروافد الثقافية –ناشرون. بغداد، العراق.

6.فيصل الدراج. (2004). *الرواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية*. المركز الثقافي العربي.الدار البيضاء، المغرب.

7.نادية هناوي. (2019). *السرد القابض على التاريخ، مباصرة في رواية التاريخ معاينة في نماذج روائية عربية وأجنبية*. دار غيداء للنشر والتوزيع.عمان، الأردن.

8.نضال الشمالي. (2002). *الرواية والتاريخ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية*. عالم الكتب الحديث.الأردن.